

أثر الخطاب الكرامي في الميخال الإجتماعي

الجزائر عبر محطات تاريخية.

أولاجي بومدين

جامعة سيدي بلعباس

الملخص : ما من شك أن جلّ الكتابات التي أرخت للجزائر، ألحّت لدى تأثير الجانب الروحي والمعتقد الإسلامي الممثل في التيار الصوفي السني، الذي وجّه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية للبلاد، خصوصا مرحلة الحكم العثماني بالجزائر حيث لم يسبق أن شهد التيار الصوفي مثيلا للنموذ والانتشار الواسع.

وفي هذا السياق وفضولا منا في إجلاء بعض من الممارسة الصوفية التي كان لها بالغ الأثر في إحكام سلطة الأولياء ومن بعدها المؤسسة الصوفية والتي تمثلت في طرقها المتنوعة، التي لعبت دورا محوريا في الحياة الاجتماعية، أن نذكر هنا كرامة المتصوفة، التي كانت وجهها دالا ومبرهنا لولاية الولي، ودورها المهم في تشكيل الميخلة الجمعية للمجتمع الجزائري عبر محطات تاريخية، وحتى يتسنى لنا الفهم الصحيح نهد بتعريف للكرامة.

1 - الكرامة المصلح والمفهوم:

أ. لغة:

يلاحظ الباحث أثناء تعرضه لمعنى الكرامة في المعاجم، أن مدلولها عامة لا يخرج عن دائرة الخلق الكريم، بحيث يأتي مقرونا بالفعل الحسن وجيّد.

جاء في اللسان أن كلمة كرم تعني: الكريم والتي هي من صفات وأسماء الله الحسنى، وهو الكثير الخير والجلود¹. وفي أساس البلاغة للزمخشري مادة ك. ر. م: كرم علينا فلان كرامة، وله علينا كرامة وأكرمه الله وكرمه وأكرم نفسه بالتقوى وأكرمها عن المعاصي، وهو يتكرم عن الشوائب وإن أجل المكارم اجتناب المحارم، وهم الأطيبون الأكارم يقال: كارت فلانا. وفي الحديث: أن الذي حرمها حرم أن يكارم بها، وفيه أيضا إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموا⁽²⁾.

ب. مفهوم الكرامة:

تعد الكرامة الصوفية بناء على التعريف الشائع لها، أمر خارق للعادة تقع على خلاف الحالة المعهودة والمألوفة التي استقر الحدث العادي عليها، وغير مقترنة بدعوى النبوة، يجريه الله عز وجل على عبد صالح من عباده، وهي بذلك تختلف عن المعجزة المرتبطة بالأنبياء والرسل، والتي تسهم في إثبات دعاوى النبوة، بينما الكرامة تساهم في إثبات دعاوى الولاية.

ومن هذا المنطلق يذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الكرامة الصوفية بنية أساسية في الفكر البشري، لأنها تشكل وتؤكد ممارسة المعتقد الديني⁽³⁾، بإعادة تأسيس واقتناء لطبيعة المعجزة، إلا أن المعتقدات الشعبية لم تكن بمنأى عن الفهم لمعنى الكرامة، حيث تعرض مفهوم الكرامة لإضافات كانت تستجيب لإشباع رغبة المخيال الشعبي، مما جعل الكرامة تزاح عن ما هو معروف عنها في الثقافة الرسمية، حيث تستمد جذورها من الدين وتستقي مادتها من المعجزات، لكن سرعان ما تعرض للشوائب بعدما تلتبس بالمعتقدات الشعبية، وتبتعد عن النسيج الديني، حيث تتعرض للحذف والزيادة كلما تداولت وتناقلت لتحاول خلق فضاء نقي وتأسيس لمجتمع فاضل، أين يكون العنصر الفاعل فيها الولي.

2 - خصائص الخطاب الكرامي؛

من ناحية الشكل، والذي يقصد به هنا رمزية التواصل بين أفراد المجتمع والذي نسعى إلى تحليله في عرضنا هذا خصوصاً بالجزائر أثناء الفترة العثمانية، فالكرامة أخذت شكل التعبير الأدبي وبلون خاص ومميز، غالباً ما كان عبارة عن حكاية قصيرة تروي قصة بطل صوفي، أو ولي صالح له من القدرات ما يمكنه من تحقيق ما هو خارق للعادة ومخالف لسنن الطبيعة⁽⁴⁾.

وفي بنا أن نذكر ما حوته كتب التصوف على كرامة الأولياء، خاصة منها كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" لكتابه: ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي، و"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم، وكثير منها، نجد معظمها إن لم نقل كلها تمتاز إضافة إلى ما سبق بأبعاد سردية، أن السرد (Narrativité)⁽⁵⁾ حاضر فيها، والمقصود من وراءها أن تحضر جماع عناصر السرد المتضافرة في بناء المعنى، للقفز به نحو ساحة التداول، مثل الخطابات السردية الأخرى التي طبع بها زمن التواجد العثماني بالجزائر.

كما اقتربت الكرامة من السرد الأدبي الشعبي المتميز بالشفاهية، حيث يتم نقله عن طريق التداول⁽⁶⁾، فأضفى بذلك عليها صيغ التأويل، وصفة المزاعم الشعبية الرمزية، كالحديث مع الموتى، وتسخير الحيوان والجماد، والمشي على الماء والطيران⁽⁷⁾، والملاحظ أن الأسلوب الذي كتبت به الحكاية الكرامية أسلوب بسيط في نوعه، وبه أحياناً ألفاظ عامية. تحكى دون تحليل، وتسرد دون أن تناقش⁽⁸⁾، لدى انعقاد حلقات بالزوايا والمساجد أو بجوارها، كما كانت تحكى في المواسم والمواعيد التي يلتقي فيها الناس في المقام لإطعام الناس، وتذكرة بمسيرة الولي، كما كانت تحكى مثل هته القصص في المآتم والمناسبات الدينية المختلفة، وكان يجد الرواة في الأسواق الشعبية منابر نشر للخطاب الكرامي، ومن الشواهد على ذلك ما كان يتداول من قصائد مثل القصيدة التي تنسب إلى الشيخ محمد بن عثمان الغريسي والتي تحكى سيرة "الولي الصالح سيدي محمد بن علي بهلول المجاجي"⁽⁹⁾ والتي مطلعها:

بسم الله والحمد لله نبتد الإنشاد في بحر امريح الغالي ابديت انجول

نشكر ونعظم في جيد الجواد سلطان أهل الله الفارس المقبول
سيدي امحمد بن علي اضيا لثماذ مولى مجاجة وأنا عليه نقول
مولى مجاجة يسوى اشكار انظامي به الأرض ازينت واستنار الكون
درت امديحه واجب فرض في كلامي وإذا قلت اعلى غير إلا مسنون
كي نبدا في مدحه ينصلح غيامي يفرح القلب اللي كان مغبون
هذا الغوث استمداد من الرسول

صفى الأرض اغسلها ما بقى فساد وانشر الصلاح على المدن والتلول
عمر بالتقوى والعدل كل بلاد واصفات القلوب اللي بقات غلول
مولى مجاجة واني عليه نقول

لسانه ما يغفلش على الشهادة غارق فالتوحيد وعالم الفنون
ربي اعطالو برهان خرق العادة يتصرف حكم ما بين كاف ونون
توفيق من الله للقدر والارادة حتى يقول للشيء كون فيكون

إلى أن يختتمها بقوله :

يرحم الله امحمد بن عثمان والاجداد والوالدين والخوى اثنا ورجول
واهل واقرب وما ولد اولاد والمومنين الكل كافة باجمول

من صفات هذه المجالس وطبيعتها أن الشيخ يحكي والمجتمعون حوله يصفون في صمت تام، لا صوت يسمع غير صوته، ولا تعقيب على كلامه إلا بعض العبارات في نهاية القصة : الله ينفعنا ببركاته.

3 - طبيعة المرسل والمتلقي في الفكر الكرامي :

لم تخلو كتب التصوف، التي كان ينهل منها المنتسبين للطرق الصوفية وعامة الناس، من سرد لكرامات الأولياء وخوارقهم كما ذكرناه سابقا، حيث تبنى هذا النهج في الجزائر أثناء العهد العثماني⁽¹⁰⁾ جملة من العلماء والمفكرين، ومن هؤلاء المؤلفين " ابن سعد" بكتابه النجم الثاقب" وتبعه ابن مريم في " البستان"، والبطيوي في "مطلب الفوز"، والصباغ في " بستان الأزهار" وابن سليمان في " كعبة الطائفين"، فأضحت الكرامة بهذه الشاكلة وفي هذا الجو المثاقف رغم اقتترانها بالغيبيات، وفضلا عن ما تتسم به من ظاهر أسطوري، تعبر عن نتاج كلي لا يمكن فهمه إلا في ظل النظم والمعتقد السائد،¹¹ إذ الأبرز في تجلياته ورسوخه في ذهنية المجتمع الجزائري في الفترة العثمانية، تأكيد التيار السني المالكي لوجود كرامات الأولياء والاعتراف بها، حتى لو عدت من الأمور الخارقة للعادة.

حيث يؤكد أن الكرامة هي نتاج العمل بالكتاب والسنة، وأمانة صدق على صحة السلوك عند من تظهر على يده، واتحافا للسند الذي يعطي مهابة للولي، ومن ذلك ما يورده ابن مريم في "البستان": عن أبي مدين شعيب قوله: "كرامات الأولياء نتائج معجزات سيدنا محمد رسول الله (ص) وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى، بسنده عن الجنيد عن السري السقطي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري عن علي رضي الله عنه، عن النبي (ص) عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل جلاله".⁽¹²⁾

كما نجد في الرسالة التشريعية ما يثبت ذلك: "ظهور الكرامات على الأولياء جائز" وقوله أيضا "الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز"،⁽¹³⁾ كما يؤكد ابن خلدون أيضا صحة وجود الكرامات بقوله: "وكرامات القوم أمر صحيح غير منكر وإنكارها نوع من المكابرة"،⁽¹⁴⁾ كما يذكر في نفس السياق السراج في كتابه "اللمع": "أن الآيات لله والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخير المسلمين".⁽¹⁵⁾

هذا الطريق الذي انتهجه علماء الأمة في تثبيت صحة الكرامة وصدقها، جعل من علماء الجزائر اتباعا لما درج عليها السلف، في تلقين وتربية الناشئة، وإذا أخذنا على سبيل المثال العهد العثماني بالجزائر نلاحظ أن من جملة علمائها ما حملوا على عاتقهم تبليغ الموروث الثقافي للأمة، "فالصباغ" مثلا كان متوليا القضاء في وقته، ولقد قام بذكر كثير من الخوارق والكرامات ونسبها للشيخ "أحمد بن يوسف"، و"ابن مريم" كان من مؤدبي الصبيان، حيث نسب كثيرا من الكرامات إلى معظم من ترجم لهم، وبهذه الصيغة التي امتاز بها علماء تلك المرحلة، لم يكن بحال من الأحوال أن يحتبس تداول هذا الفكر، وأن لا يسري في جنبات المجتمع ما دام مفكري تلك المرحلة تبناه وأكدوه في كتاباتهم.

مما لا شك فيه وعبر القناة التي استطاع التصوف أن ينشئها داخل المجتمع الجزائري، بتدوين مآثر وكرامات شيوخ الطرق الصوفية، وتلقيها لشرائع واسعة في المجتمع، استطاع بذلك أن يبني جسور تواصل لا حدود لها، تخاطب الخاص والعام، موظفة في ذلك الخطاب الكرامي كأسلوب للإقناع والتخويف أحيانا.

والجدير بالذكر هنا أن من استطاعوا انتاج هذا الفكر الكرامي وإفشاءه داخل المجتمع، كانوا جلهم بنحدرون من الشرائع الدنيا من الهرم الاجتماعي، فمن خلال سلوكياتهم اليومية المعاشة، يتضح توجههم الزهدي وأسلوبهم التقشفي، إذ بهذا المنحى عبرت الكرامة عن تطلعات طبقة الفقراء، وحاربت بالقدر نفسه مظاهر الترف، وإن الظروف والزمن الذي انتج الكرامة لم يكن بمنى عن الأزمات والأخطار التي حدثت بالمجتمع الجزائري آنذاك.

وليس من قبيل الصدف أن تكون معظم المصادر التي استقينا منها معلومات بحثنا، ترجع إلى مرحلة أصبحت الأزمات والأخطار تنذر بوقوعها، وأضحت اصوات الأدعياء المزيفين تنتشر من جهة، والمبطلون من جهة أخرى، لذلك كانت الكرامة أكثر من ضرورة روحية، بل كانت ضرورة تاريخية.

الاحالات والهوامش :

1. ابن المنظور، لسان العرب، م/249/3.
2. الزمخشري، أساس البلاغة، ص54.
3. زيعور، الكرامة والصوفية، الأسطورة والعلم، ط2، بيروت، 1984م، ص83.
4. للمزيد انظر محمد شريف سيدي موسى: جذور التصوف ببلاد المغرب والجزائر، الندوة الفكرية الخامسة للشيخ العدواني/الوادي 2003، 1 نوفمبر 2000م، ص4.
5. بد المجيد العابد، التحليل السيميائي للخطاب الصوفي، (كرامة الفقيه أبي حفص مثالا) المجلة الثقافية عود الند، العدد 41، 11 نوفمبر 2009.
6. نجد دائما عبارة (حدثني) و(سمعت) و(أخبرني) و(قال).....
7. د. إبراهيم القادري، الإسلام السري في المغرب العربي، سينا - للنشر، ط1، 1995م، ص132. للاستزادة وقصد أن يتضح مدلول الفكر الكرامي الذي شكل نسقا تواصليا بين المتصوفة، يرجى الاضطلاع على كل من: الكرامة الواردة عند ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، طبعة البيضاء 1984 ص: 84- 85. وعن المشي على الماء انظر المصدر نفسه ص: 160. وكذلك التميمي: كتاب المستفاد في مناقب العباد (مخطوط) ص41- 82. أما عن تسخير الحيوانات وصدافتهم لصاحب الكرامات فينظر عند التلمساني: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب. (مخطوط) ص181.
8. انظر الكرامات الواردة في المتن.
9. محمد دحماني، حكايات كرامات الاولياء في منطقة الشلف، مذكرة الماجستير، سنة 2006، ص83.
10. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن 10هـ إلى 14هـ، ج1، شون ت، الجزائر، 1981م، ص482.
11. سعد الله أبو القاسم، مرجع نفسه، ص133.
12. ابن مريم الشريف التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص110.
13. القشيري الرسالة ص160.
14. ابن خلدون تاريخ العلامة ج5/160.
15. الطوسي عبد الله علي، اللمع، تحقيق عماد البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة ب.ت، ص157.